

ويحك قلبي ما أقساک!!

هذه نفحات حياة أفاض الله بها عليّ حين قرأت يوماً حديث النبي ﷺ :

«أوصيك أن تستحي من الله تعالى كما تستحي من الرجل الصالح من قومك»⁽¹⁾.

فوقفت فيه مع نفسي عدة وقفات، وخُضْتُ غِمار بحر معانيه، وتلمّست أنوار النبوة تُشعُّ من ألفاظه تنير لنا الواقع بروعة الوحي، فجاءت هذه الكلمات تحت هذا العنوان، ذلك أن العبادة حياةً أجدى من العبادة خوفاً، وأكثر نفعاً من التحرك تحت تأثير سوط العقوبة، ودافعية العمل في هذه الحالة أقوى وأدوم، وفي كلّ خير، ولا يضرّك من أي باب دخلت ما دمت داخلاً.. فاللهم افتح لنا أبواب فضلك، وأنر بصائرنا بأنوار فهمك، وأقبل بقلوبنا عليك واصرفها عمن سواك..

✦ يا نفس.. لو خيرّوك بين فقد بصرك وفقد بصيرتك.. بين عمى عينيك أو عمى قلبك.. اصدقيني القول.. ماذا كنت تختارين؟! ألا فاعلمي أن عمى القلوب أضل.. وأن جهلها أشد، وماذا جنى من أبصرت عيناه وعمى قلبه، حتى تاه عن طريق الجنة وهام على وجهه إلى أن وصل أبواب جهنم، في ظلمات الجهل إقامته وبين مردة الشياطين راحته!!

وعلى النقيض.. ما ضرّ من عمت عيناه واستنار قلبه بنور الإيثار، أما بلغك خبر حبر الأمة وبحرها عبد الله بن عباس رضي الله عنه حين قال بعد فقد بصره:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وسمعي منها نور

✦ ناداني أبي يوماً فتأخّرت عليه، فغضب عليّ ولم يكلمني ثلاثة أيام.

وكم مرة ناديتنا ربنا هداك، فأجبنا غيرك وعصيناك، ومع هذا ما هجرتنا ولا عاديتنا، واستمر فيض جودك رغم جرمنا وإساءتنا، فيا خجلة الفؤاد انطقي.. ويا حمرة الخجل أطلي!! ويا قلب أخبرني: متى تتعلم فن الاعتذار وتسكب دمعة الانكسار؟!

✦ في عملي.. وضع لي السيد المدير أهدافاً شاقة تتحدى أهداف العام الماضي، وألزمني بها، وكان عليّ أن أستجمع قواي الكامنة، وأحطّم ما وُضع لي، بل وأتجاوزه في إطار التنافس المحموم بيني وبين زملائي طمعاً

(1) صحيح: رواه الطبراني والبيهقي عن سعيد بن يزيد بن الأزور كما في صحيح الجامع رقم: 2541

في الترقية القادمة وفارق الراتب المنتظر، وهذا شأنهم كل عام .. كلما حطمت هدفا أغروني بآخر، وكلما حُزرت ترقية عُرضت عليَّ أخرى، في متوالية لا تنتهي وطموح غير متناهٍ، وفي لحظة محاسبة نادرة وعند صفاء نفس .. سألتها: بالله .. أهكذا تصنعين مع ربك؟! هل لك أهداف أخروية توازي الدنيوية؟! هل كلما ارتقيت إلى درجة عند ربك طمعت في أعلى منها؟! هل كل طموحاتك من الأرض وإلى الأرض أم أن منها سماوي؟! أكدحا للدنيا كدحا!! أسعيا للحطام الزائل فحسب!! لو جعلت عُشر ذلك للآخرة لعبرت الصراط وسكنت الجنة منذ زمن!!

✦ أغضبتُ يوما زوجتي، فباتت عليَّ غضبي، وبتُّ أنا على أشواك الأرق والسهاد أتقلَّب، ولم أسترح ويرجع لي صفاء بالي حتى اصطلحنا، والثلث الذي قدَّمته: هدية جميلة واعتذار رقيق طوى صفحة الشقاق ومحي ألم الفراق، فلماذا لم يكن هذا حالي مع ربي؟!

✦ تشارك اثنان من إخواني في تجارة، وكانا مثال الحب والوداد، حتى أملت بهما ضائقة، فتسلل الشيطان ينزغ وبقلوبها يعبث ليُلقي بينهما العداوة والبغضاء، وانتصب ميزان العدل بدلا من الفضل، وطلبا القسمة بالسوية فلا تنازل من واحد للآخر عن ذرة جهد أو حفنة مال.

فواعجبا!! لا أحاسب نفسا توردي المهالك غدا إن أنا أهملتها، بينما أتشدد في حساب شريك تجارة على دنيا حلالها حساب وحرامها عقاب؟!

أسامح نفسي في ما جنت في حقي ولا أسامح أخي في شيء لو عفوت عنه فيه لعفا الله عني، ولو ساحتته في بعض حقي لسامحني ربي في كل حقه!! إلى متى ترخص عندنا الآخرة؟!

✦ سكنت مسكنا جديدا لم أكن أحلم به يوما، وبعد فترة وجيزة بدأت أعتاد رؤية ما أنعم الله به عليَّ، وفقدت روعة الإحساس بهذه الخير، وسرعان ما بدأت نفسي تتطلع إلى مسكن أفضل، وهكذا أنا .. لا أقنع بشيء من الدنيا حتى أرجو غيره، ولا أحصِّل أملا حتى أحلم بأفضل منه، فلماذا لم أتطلع للأعلى والأعظم؟! ولم لم أبذل جهدي الأكبر ووقتي الأثمن للمسكن الأروع والمستقر الأدموم؟! مع أنه لا يُملُّ على مدار الأعوام ولا يُطمح في غيره مهما دارت عجلة الزمان: الجنة وهل أعلى!!

✦ ما أسعد من مشى خفيفا دون أحمال، والأسعد منه من مشى نقيًا دون أوزار!! كيف؟! سهلة يسيرة: كلما حملت ذنبا أسقطته عن كاهلي بعزيمة فتية وتوبة فورية، كلما أسأت أحسنت .. كلما سقطتُ علوت .. كلما أدبرت أقبلت، راحة القلب أهم من راحة الجسد يا خادم الجسد!!

✦ حالي يدل على شدة جهلي، فالقول قول مصدق والفعل فعل مكذب، وكأني ما قرأت يوماً: ألم يعلم بأن الله يرى .. ولا مررت أثناء تلاوتي بقوله سبحانه: يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله .. ازدواجية عجيبة .. تناقض ما له مثيل .. علم وجهالة .. إيمان ونكران .. حال عكس مقال .. كل هذا في يوم واحد .. وفي شخص واحد ..

لو تأملت أمري لأدركت أن من استحيا من غيره ولم يستح من نفسه فنفسه أحسن عنده من غيره، ومن استحيا من نفسه ولم يستح من ربه فما عرف ربه وما قدره حق قدره، فمتى أعرفك ربي .. متى؟!

✦ نفذ راتبي قبل نهاية الشهر، فأصابني القلق والاضطراب، وبذلت قسارى جهدي لأدبر المال اللازم لنفقة العيال وإدارة شؤون البيت، ولم أشعر بالأمان إلا بعد أن حصلت عليه بعد مشقة وكبد، وحاصرني السؤال: وماذا عن رصيدي الآخر؟! ماذا إذا لم يكن هناك ما يكفيني لمعيشتي الأطول ورقدي الأوحش، هناك .. في الغرفة المظلمة، كيف لا أشعر باضطراب لقلة الزاد وطول السفر؟! كيف لا يداهمني قلق وأنا أبدأ رصيدي -على قلته- يمناً ويسرة بنظرة هنا وكلمة هناك؟! متى أطمئن قلبي بتدبير ما أحججه قبل فوات الأوان وخطفة الموت المرتقبة كل لحظة؟! متى أحمل همّ الأمر الأصعب والمصير الأهم؟! متى .. متى .. متى؟!

✦ خوفي من الخلق لا يوازيه خوفي من الخالق .. خوف من غضب بشر مع الاستهانة بغضب ربّ البشر .. يشهد عليّ فيه تكرّر الإساءات ونقض العهودات مع التعويل على سايع الرحمت دون النظر إلى هول العقوبات .. يا قلبي ..

كم غرقت في بحار جهل ..

لو عرفت قدره ما عصيته ..

لو علمت بطشه ما خالفت أمره ..

لو رأيت شدة العذاب ما استسغت طول الغياب ..

لو عاينت صنعه بالعصاة والمجرمين لاستقمت على الطريق دون عون من رقيق ..

لو .. لو .. لو .. وما تنفعك «لو» بعد هجوم الموت ونزول القبر!!!

